

النيل في العهد الفرعوني

ترعة ، مدنه ، سفنه ، خزآن الفيوم

للدكتور حسن كمال

أما طريقة تصريف مياه النيل على الأراضي فكانت بواسطة الترع وتقسيم الأراضي إلى حياض بواسطة جسر ، وأعلم أن هذه الجسور كان يعهد في حراسها إلى خبراء أكفأ لمنع قطعها في أي بقعة حتى لا يتسبب عن ذلك تلف الزراعة وغرق البساتين والقري . وقد اهتم القوم كثيراً بهذه الحراسة حتى عهدوا في أدائها إلى قوة كبيرة من الفرسان والمشاة وأسروا المكاتب المعديدة للإشراف عليها وزودوها بالاهتادات المالية الكبيرة للحفاظ عليها وجعلها دائماً في حالة جيدة . وفي العصر الروماني كان يعاقب كل من يثلم جسراً بالأشغال الشاقة في الأعمال العمومية أو المنجم أو يوسم ثم ينفي إلى الواحات . قال استرابون أن مشاريع الترع والجسور كانت غاية في النظام والترتيب حتى تمكن القوم بذلك من ري الأراضي التي كان يتعذر ريها لو تركت لطبيعتها وهكذا أصبحت الأراضي البعيدة تروى بالترع كالأراضي التي يغمرها فيضان النيل مباشرة

وبديهي أن فيضان النيل إذا زاد عن الحد المعتاد هدد انقطر بالترع لأن التري مشادة بالنيل وهذا الأخير إذا تشبع بالمياه تحول إلى كتل طينية . ثم إن صمرا القري بالمياه يحول دون اتخاذها وحيواتها . قال بلينيوس أن الفيضان إذا زاد عن ستة عشر ذراعاً حلّ القمح بالقطر كما يحلّ لو بلغ اثني عشر ذراعاً أو أقل . (راجع وكسون)

وكانت عناية القوم بالترع لا تقل عن عنايتهم بالجسور . فكانوا يعهدون إلى مديريهم في المحافظة على ترعهم التي كانت مركبة عليها المعارف اللازمة والفتحات التي تمكن من ري الأراضي بانتظام بحسب الحاجة . وري الأراضي في تلك العصور كان مترتباً على ارتفاع سطحها ونوع النباتات المزروعة فيها . فإذا ما تم الحصاد وانتهت الزراعة انقثت فيها المياه من أقرب الفتحات إليها . وإذا هبط منسوب النيل وبدأ الفيضان في الزوال تقلفت فتحات الري وتجمع المياه من الانصراف في النهر أو الترع حتى تأخذ الأرض ما يلزمها من المياه وتكتسب أكثر مما يمكن من الغرين . وبمجرد ما يتم ذلك تفتح الفتحات فتسرب المياه في النهر . وجفاف الجو وحرارة الشمس في القطر سرعان ما يجففان





أحد منوك الأسر الأولى يشق الأرض احتفالاً بحفر قناة
جديدة (مأخوذة عن المستر كويل)

الأرض . لذلك حالما تتصرب المياه ووقتها تكون الأرض رطبة يبدأ الفلاح في تهيتها لزرع بالطرق المتبينة التي تتطلبها طبيعة الأرض وجغرافيتها ونوع النبات المراد زرعه فيها ولا أدل على اهتمام الفراعنة بحفر الترع اللازمة لري الأراضي من الاحتفالات الرسمية التي كانت تقام لذلك ويشارك فيها الملك بنفسه . فيأخذ بيده القياس ويشق الأرض لأول مرة مسجلاً بذلك سروره بهذا العمل الجليل . ويجد القاريء في الشكل رقم ١ (المأخوذ عن الأستاذ برستد في كتابه تاريخ مصر القديم) أحد ملوك الأسرة الأولى يشق الأرض بفأس احتفالاً بحفر قناة جديدة لابساً رداءً مثبتاً فوق الكتف ومنتهياً من الخلف بذيل أمد وكانت للنيل عدة مدن يحتمل أنها كانت موقوفة له منها (حاث حمي) ، (نويت حمي) ، (نيابوليس)

أما سفن النيل فكانت على أنواع متعددة . بعضها مصنوع للسياحة الفخرية أو للزهة والبعض الآخر للشحن . وهذه السفن في مجموعها تختلف شكلاً عن سفن البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر وأيضاً عن السفن الحربية النيلية التي كانت تستعمل للحراسة ولتفريغ السدان . أما النوتية فبعضهم كان معيناً من قبل الحكومة كالذين يعمد إليهم في نقل الأحجار إلى المعابد . والبعض الآخر أقل درجة من هؤلاء يقومون بشحن البضائع الصغيرة وهم أشبه بالبغارة الحاليين في سفن النيل والملاحظ دائماً أن عمل النوتي المكلف إدارة الدفة كانت محل اعتبار وامتنياز . ومثل هذا الشخص في السفن الحربية كان أعلى درجة من سائر النوتية . أما الشخص المكلف ملاحظة (الملب) فكان يأتي بعد القبطان في المرتبة

وكثيراً ما نشاهد السفن النيلية منقوشة على المقابر المصرية القديمة . فقبرة (باحري) مثلاً التي في جبة الكاب والتي يرجع تاريخها إلى الأسرة الثامنة عشرة (١٥٥٥ — ١٣٥٠ ق . م) تحوي رسمين لسفينتين يلبتين أحدهما مشدودة الشراع متجهة جنوباً (أي ضد التيار) . والثانية مطوية الشراع وسائرة شمالاً بواسطة التيار والمجاديف . وكلتا السفينتين تشبه أحدهما الأخرى تماماً . وفي كل منهما حجرة صغيرة ذات نافذتين وبسطة بمقدم السفينة وأخرى بمؤخرها . ونشاهد عربة على سطح الحجرة وخيل خلف النوتي . ويستنتج من كل هذا ومن الألوان الزاهية الزينة بها هاتان السفينتان أنهما كلتا تستعملان لزهة هذا الأمير . وفي مقدم السفينة السائرة جنوباً يلاحظ نوتي قابض على مدلاة يسير بها غور البحر ليحجب الاصطدام بقاعه . وفوق هذا النوتي كتبت كتابة هذه ترجمتها :-

« دعنا نعطي الإشارة للذهب ونتجه إلى بيت المال تلك البلدة الجميلة الزاهية أفيرد عليه القبطان لا تكلم سدى إليها الشخص الواقف على مقدم السفينة »
وبهذه الطريقة وامثالها يجد الباحث الكثير من السفن مرسومة على المقابر والمعابد . ومن هذه

الرسوم يتضح للإنسان ان السفن كانت اهم واسطة للانتقال بين البلدان البعيدة ولشحن المحاصيل والحيوانات وللقيام بالغزوات والرقابة والنزهة والصيد وغير ذلك وليس هذا مقام الاقامة فيها لذلك سنكتفي الآن بما اوردناه

وقبل الفراغ من هذا البحث يجدر بنا ان نذكر شيئاً عن طرق الري التي انشأها الفرعنة بالقليم القيوم وما جناه القطر من هذه المشروبات العظيمة ومقدار ما امكن توفيره من مياه الفيضان السنوي لينتفع به الوجه البحري بعد زواله

معلوم ان اقليم القيوم يقع في صحراء لوبيا على ارتفاع ٣٠٠ او ٤٠٠ قدم فوق سطح البحر . اما اسم القيوم فأصله بالمصرية القديمة (بايوم) اي اليم او البحر . وهذا الاقليم هو في الحقيقة اقرب واحة زاوي النيل . وهو خصب التربة جيد المناخ يضاوي المساحة تحيط به التلال . وقد استمرت شهرة هذا الاقليم عالية حتى العهد البطالسي والروماني . فقد قال عنه امسترابون ان مديرية القيوم اغرب المديرات بالنسبة الى مناظرها الفتاة وخصبها وزراعتها . فهي الوحيدة التي تكثر فيها زراعة الزيتون بنجاح . ومعلوم ان كلما حسن الزيتون طاب زيتته . وكلما اهلته زراعته ساءت رائحة زيتته . ولا يوجد بالقطر المصري اقليم آخر يزرع فيه الزيتون كالقيوم الاً حدائق الاسكندرية . لكن في هذه الاخيرة يجذ الانسان الزيتون دون الزيت . اما العنب والتفاح والحبوب الاخرى وغيرها تنكث في هذا الاقليم (اي القيوم)

والى بحر يوسف يرجع الفضل الاكبر في خصب القيوم . وهذا البحر يتفرع من رعة الابراهيمية بالقرب من دبروط . ثم يعطفت عند اللاهون ويخترق سلسلة جبال لوبيا . ثم يتفرع هناك الى عدة افرع تتوزع بواسطتها المياه الى سائر جهات الاقليم . وبعد ما يدخل بحر يوسف مديرية القيوم يأخذ سطح الارض هناك في الانخفاض تدريجياً نحو الغرب حتى الشاطئ الشرقي لبركة قارون (راجع النموذج مديرية القيوم للمجسم بمتحف الجيولوجيا بالقاهرة)

وكانت مديرية القيوم تعرف قديماً باسم (ني شي) ومعناها (ارض البحيرة) نسبة الى البحيرة الكبرى الولد ذكرها كثيراً في كتب المؤرخين والجغرافيين اليونانيين تحت اسم «بحيرة موريس» (واصله بالمصرية مو — ار ومعناه البحيرة الكبيرة) . ولم يبق منها الاً الآن البركة قارون . وفي اقدم العصور كانت البحيرة تشمل كل الاقليم لكنها جفت تدريجياً في الازمنة التاريخية الى ان اصبحت محصورة بين قصر الصناعة شمالاً وبياض وانشواي والعجيين جنوباً ويبلغ طول ساحلها ١٤٠ ميلاً ومساحتها حوالي ٧٧٠ ميلاً مربعاً . اما سطح مياهها فكان أعلى من سطح مياه البحر الابيض المتوسط بحوالي ٧٣ قدماً . وهو الآن اقل منه بحوالي ١٤٤ قدماً . وهكذا لما جفت بحيرة موريس التبدعة خلفت جنوبها اقليماً خصباً تأسست عليه مدينة (شدت) المعروفة باسم كركوديلر بوليس والتي كانت محاطة بالجسور لحفظها من الفيضان النيل . وكثير من حكام الاسرة الثانية عشرة

استوطنوا الساحل الشرقي لهذا الاقليم وعلى الاخص امنمحت الثالث (١٨٢٠ قبل الميلاد) واختارت الملكة (تي) زوجة امنميس الثالث (١٤٦١ - ١٣٢٥ ق. م) اللاهون مسكناً لها . وفي العهد اليوناني وعلى الاخص في عهد بطليموس الثاني المعروف باسم فيلادلفاس تغمرت البحيرة بواسطة الجسور الى ما يقرب من حجمها الحالي فاكتملت بذلك عدة اراضي للزراعة كانت سبياً في عمار هذا الاقليم كما يستدل عليه من المدن البانعة والقرى النغية التي كانت مشادة عليها . وفي عامي ١٩٢٧ و ١٩٢٨ ميلادية اكتشفت مشروعات الري الكبرى التي أسسها فيلادلفاس المذكور وقد وصف استرابون هذه البحيرة قائلاً : -

ان هذه البحيرة بالنسبة الى حجمها وعمقها كانت تخزن مياه النيل بسهولة بدون اغراق الاهالي والمجرب . فاذا ما انخفض النيل وزالت زيادة مياه البحيرة عن طريق القناة (بحر يوسف) اصبح مقدار المياه الذي فيها كافيّاً لري ذلك الاقليم . وهناك اهوسة عند طرفي القناة يشرف عليها مهندسون لمراقبة مقدار المياه الداخلة فيها واخراجها منها . ولا تزال بالقرب من اللاهون بقايا هورس قائمة حتى الآن

لما قول هيرودوتس ان هذه البحيرة اسطناعية نشطاً فضلاً عن مناقضته لرواية استرابون وشمال مدينة الفيوم توجد تلال قدرة تعرف باسم كيهان فارس مساحتها ٥٦٠ فداناً هي في الحقيقة بقايا كركوديلو بوليس او ارسينو . وهذه التلال هي اكبر آثار مصرية باقية لمدينة قديمة وقد استعمل كثير من اترتها للسباح وصنع الطوب . وهذه المدينة كانت تعرف قديماً باسم (شبت) كما المعنا سابقاً . وكانت مركز عبادة الشمس المعروف قديماً باسم (سبك) والى هذا الاخير كان يعهد في محافظة الاقليم . وهذا هو السبب في ان اليونان سموا البلدة كركوديلو بوليس اي مدينة الشمس . لكن هذه المدينة لم يكن لها شأن كبير في السياسة مدة وجودها . وفي عهد بطليموس الثاني اصطفت بالصيغة اليونانية وشيدت فيها احياء يونانية وكذا معابد يونانية ومدارس وغير ذلك . ولما رقيت بعد ذلك الملكة (ارسينو) الى درجة التقديس هناك سميت المدينة باسم مدينة ارسينو . وقد بلغ مقدار سكان هذه المدينة في ريعانها المائة الف نسمة

وفي مديرية الفيوم ترك امنمحت الثالث آثاره . لكن اول من تدخل في طبيعة هذا الاقليم هو امنمحت الاول . ولا يزال مثاله عند مدينة الفيوم يثبت ما اكتسب هذا الملك من مساحة عظيمة من البحيرة الاصلية لاستغلالها للزراعة . ولا يبعد ان يكون الجسر العظيم القرب من المعبد القديم هناك جزءاً من اول خزان شيد لكسب بعض الاقليم من البحيرة . وهذا الخزان لا بد ان يكون ممتداً حتى يمحيط التي تبعد حوالي ثلاثة اميال او اربعة عن المعبد وذلك في عهد اومرتس الاول الذي لا تزال مسلكه منسوبة هناك للآن

فلما حكم امنمحت الثالث قامت حكومته بعمل مشروعات الري الكبرى في الفيوم فانشأت

نحوًا كبيراً (هو في الحقيقة جسر عظيم) طوله حوالي العشرين ميلاً في البحيرة مكتسباً بذلك ما ساحتها عشرين ألفاً من الأقدية . وهذه الأراضي المكتسبة هي حسب الأراضي هناك وفي الطرف الشمالي لهذا الخزان (وهو المعروف الآن باسم بياهور) شيد رسيقان كبيران بالأحجار ونصب عليها تماثيل شاهقان لهذا الملك كل منهما مصنوع من قطعة حجرية واحدة ارتفاعها حوالي ١٣ متراً . وفي المتحف الاثمولوجي باكنفورد بقايا هذين التماثيل . ولم يكن المقصود من إقامة هذا الخزان اكتساب اراض خصبه للزراعة فقط بل كان الغرض منه ايضاً التحكم في تصريف مياه النيل من البحيرة واليه . وقد استمرت هذه الرقابة حتى زمن هيروdotus . وبقيت هذه البحيرة آلاف السنين تستعمل خزناً لمياه الفيضان للانتفاع به بعد زواله . وهكذا يرجع الى قدماء المصريين الفضل في انشاء الخزانات منذ اقدم العصور (راجع خريطة الفيوم)

ثم اهل هذا المشروع لسببين اولهما رسوب غرين النيل بنسبة اكبر في الارض القريبة من النهر عنها في الارض البعيدة . فنجم عن ذلك ارتفاع منسوب الاراضي القريبة من شاطئ النيل وارتفاع منسوب قاع النهر نفسه مما كان عليه سابقاً فتعذر بذلك صرف المياه المخزونة في النيل ثانية . ثانيهما ان البطالة كانوا مهتمين باكتساب اراض واسعة باقليم الفيوم لانشاء مستعمرات للجنود المقدونيين (وخصوصاً في عهد بطليموس سوتر) . لذلك اقتصر على ارسال مياه النيل في البحيرة بمقادير تكفي فقط لري الفيوم . وهكذا تركت البحيرة تجف تدريجياً . وهكذا تمكن الجنود المقدونيون من الاستيطان هناك وعائلاتهم فنشأت المدن وشيدت المعابد

واهتم امنسحمت الثالث بتجميل المعبد الذي اقامه اجداده بمدينة التماسح (كركوديلوبوليس ارسينوا) تلك المدينة التي كانت تعرف وقتئذ باسم (سيد) اي المدينة المنقذة او المكتبة اشارة الى المجهودات العظيمة التي بذلتها القرعنة في اقاذ اراضي البحيرة الخصبه واكتسابها لاستعمالها في الزراعة

وقدر المهندسون حديثاً مقدار المياه التي كانت تعجز في بحيرة الفيوم وقت الاسرة الثانية عشرة بضعف حجم مياه النيل اسفل اقليم الفيوم لمدة مائة يوم ابتداء من اول ابريل من كل عام وحكم امنسحمت الثالث مصر مدة خمسين سنة حل فيها النعيم والامن والسكينة في البلاد حتى ترم القوم بحملاته قائلين ما تعريه :

هو (اي الملك) يكثر القطرين حلة خضراء اكثر من النيل العظيم

تقد زاد القطرين قوة (كيف لا) وهو نفس الحياة المرطب للانوف

هو الذي يوزع الخيرات على تابعيه . هو المغذي لخلقائه

هو النداء وفيه الخير (راجع تاريخ مصر القديم تأليف برستد وترجمة حسن كمال)